اعتبروني خادمًا عندكم ..

لم يمض أكثر من شهر واحد على بدء الدراسة حتى زاره أمير فى مقر عمله بمطابع الصباح فى شارع القصر العيني.. وبشكل لاإرادى تحسس حزامه الخزينة، وعرف أن الأمر لن يكلفه سوى خمس دقائق يغلق فيها باب الحمام على نفسه ويسحب له من الحزام خمسة جنيهات..

ولا حظ السيد أن أخاه بعد أن تناول ورقة البنكنوت ودسها فى حافظته ما زال متململًا، وكأنه يبحث عن مدخل لحديث آخر، فسأله باهتمام:

ـ «هل هناك ما يضايقك؟.. هل الولد نجيب النجارموجود معك فى نفس الكلية؟.. أو أحد من الذين يعرفون قصتك معه؟»

ـ «لا..لا..ليس هناك شيء من ذلك.. فهو لم يحصل على الثانوية لا هو ولا صديقه محمد ناجى..»

ـ «إذن..فماذا لديك؟»

ـ «البدلة..»

ـ «ما بها؟.. ها أنذا أراك بها فخيمًا، وأراها عليك فخيمة..»

ـ «لم أعد أظهر إلا بها.. وأحبس نفسى فى غرفتى، ولا أخرج حتى يحضرها الكواء»

ـ «.. فهمت.. إذن، فأنت تريد بدلة أخرى..»

ولاذا معًا بصمت مشترك.. الصمت عند أمير كان علامة الإيجاب والموافقة..

والصمت عند السيد جاء لانشغاله بفكرة وجوب تغذية الأبهة والأناقة اللازمة لحالتهما ـ هو وأمير ـ الجديدة.. حالة أنهما أولاد ناس.. أو كما وصفه عنتر مكاوى أنه «ابن أكابر» .. وما دام أمير قد عرف طريق عمله فى المطابع فسوف يزوره من آن لآخر.. ولا يجب فعلًا أن يظهر فى كل زيارة ببدلة وحيدة لا تتغير.. فأمير يجب أن يكون حالة من الوجاهة يكمل بها وجاهته.. ولما انتهى بينه وبين نفسه إلى قرار، خرج عن صمته وواجه أخاه بوجه ملىء بالود، ثم قال له:

ـ «انتظر معى هنا حتى موعد الانصراف.. سنتمشى حتى ميدان طلعت حرب؛ لنأتى لك بالبدلة الجديدة..»

* * *

وأمام زميله الريفى الذى يقاسمه غرفته بالمدينة الجامعية، وزميلين آخرين كانا فى زيارته، ألقى بأكياسه الثرية فوق سريره بحبور وراح يفضها أمامهم.. بدلة كاملة.. وبنطلونين.. وزوجًا من البلوفرات الصوفية الخفيفة، وقميصين..

ـ «ما كل هذا.. ما كل هذا..؟ مبروك.. مبروك»

هكذا هتف زميله الأول وهو يأكل الملابس بعينيه.. فألقى أمير بجسده على كرسى مكتبه وهو يزفر علامة التعب ويردد:

ـ « قابلت أبى صدفة ومعه سائقه فى شارع القصر العينى.. الرجل قام بالواجب كما ترون»

وهنا هتف زميله الآخر:

ـ «هذا ما يجب أن يكون عليه الآباء..»

* * *

ناداه نصار عبد العليم رئيس اتحاد طلبة الكلية وعضو اتحاد طلاب الجامعات المصرية وكان يجلس فى بقعة ظليلة بحديقة الجامعة وسط عدد من زملائه وزميلاته:

ـ «أمير.. لماذا لا ترشح نفسك فى أىّ لجنة من لجان الاتحاد.. اتحاد الطلبة؟»

تاه رده وسط صيحات الزملاء المرحة وهم يبدون موافقتهم نيابة عن زميلهم المختار.. ووسط هذا الهرج أتاه صوت نصار مرة أخرى:

ـ «ليتك تلحق بى فى غرفة الاتحاد.. أنا ذاهب إلى هناك»

وعرف وهو فى طريقه إلى نصار عبد العليم طالب السنة النهائية ونجم الكلية البارز أنه بدأ فى تلقى ثمار وجاهته وأناقته ونجوميته وسط الطلبة الجدد، لكنه لا يدرى سر هذا الهاجس الذى تملكه ويحثه ألا يعلن موافقته أمام نصار دفعة واحدة، فلماذا لا يُبدى رفضه للترشيح ويختلق أىّ مبرر تجود به قريحته؟

قابله نصار عبد العليم بابتسامة واسعة وحديث مرح قائلًا:

ـ «واحد مثلك صاحب شعبية رغم أنه بدون عضوية نحن أوْلى به فى الاتحاد.. لعلمك هذا ليس رأيى وحدى إنه رأى بعض زملائك..»

أتى أمير النحال بكل البراءة الممكنة فأغرق بها ملامحه قائلًا:

ـ «اعطنى فرصة أحصل فيها على رأى أبى»

فسأله نصار: **«وهل سيكون لوالدك رأيه المختلف؟»**

وأكمل أمير النحال رأيه:

ـ «كان الطلبة قبل الثورة عندما يثورون يقيلون الوزارات.. ولم يعد لهم الآن أى دور سياسى.. لأن الثورة تقوم بكل الأدوار.. هذا ما يقوله أبى.. وتفهم من هذا أن كل أنشطتنا سطحية لا تستحق أن نضحى فى مقابلها بوقت المذاكرة»

ـ «ومن قال إن الطلبة لم يعد لديهم دور سياسى؟.. الآن وعيد الثورة العاشر يقترب نقوم بتحضير مشاركة الطلبة فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية.. موعده فى مايو القادم.. وسيعلن فيه جمال عبد الناصر الميثاق الوطنى..»

زم أمير النحال شفتيه وبدا كمن يستعد لقول مختلف:

ـ «يقول بعض الخبثاء إن هذه كلها محاولات لتضميد الجراح.. جراح الانفصال عن سوريا.. الانفصال الذى ضرب الثورة فى مقتل..»

بحلق فيه نصار عبد العليم وسأله باهتمام ظاهر:

ـ «ومن هم هؤلاء الخبثاء؟..»

ـ «هم الذين لا يصل رأيهم إلى السلطة.. وصاروا خبثاء فى رأى السلطة.. فهم يقولون: ما لنا نحن وما لسوريا والوحدة معها..؟ ولماذا لا تلتفت الثورة إلى الفقراء وجياع هذا الشعب.. هناك من يتضورون جوعًا بعد عشر سنوات من الثورة»

ـ «كيف يقولون ذلك ومكاسب العمال والفلاحين من الثورة لا يمكن أن ينكرها إلا جاحد؟»

ـ «كله كلام فى كلام.. هل تصدق أن هناك أسرة تعدادها اثنا عشر فردًا يعيشون بأقل من ستة جنيهات فى الشهر؟»

ـ «هذا غير معقول..»

ـ «والدى..» ثم لاذ بالصمت

فناداه نصار:

«ماله والدك؟»

فأكمل أمير:

«يعرف أسر كثيرة من هذا النوع تعيش تحت خط الفقر..»

ـ «أرى أنك متأثر جدًّا بتجربة وأراء السيد الوالد.. ليتك تجمعنى به.. هل تقيمون هنا فى القاهرة..؟ ما أعرفه عنك أنكم ميسورون، هل هو يعمل هنا؟»

ـ «هو يقيم فى العزبة، طلق السياسة وعاش للخيول والأزهار وتدخين السيجار»

ـ «لعلها فرصة أن نمرح معك بالعزبة ذات إجازة»

ـ «سأدعوكم فى إجازة نصف العام.بإذن الله»

ـ «عمومًا.. لا تجعل هذه الآراء تؤثر فيك.. يجب أن يكون لك رأيك المستقل.. تقدم للترشيح ولا تهدر فرصتك بنفسك..»

* * *

وما إن خرج أمير من غرفة الاتحاد حتى أغلق نصار بابها على نفسه وأتى بورقة وأخرج قلمه وراح يكتب:

السيد اللواء رئيس مباحث أمن الدولة.

تحية طيبة.. وبعد...

ووضع طرف القلم بين شفتيه، ثم راح ينقر به على أسنانه مفكرًا فى كلمات معبرة للإبلاغ عن حالة عداء للثورة مدسوسة بين طلبة كلية التجارة جامعة القاهرة..

ولما سمع نقرًا خفيفًا على الباب سارع فأخفى الورقة فى درجه، ثم صاح بالطارق: «أدخل»

* * *

كان عباس النحال داخل إسطبل البقر الفريزيان حين اقترب منه زميله عوض ونادى عليه:

ـ «يا عباس.. يا عباس.. تعال.. تعال بسرعة»

وكان يقف خلف المنادى رجلان من البكوات الكبار ومعهما ضابط المركز ومخبر، فاتجه أحد الرجلين إلى عوض وسأله:

ـ «من هذا الذى تنادى عليه؟.. نحن نريد عباس بك؟»

ـ «عباس بك؟» ثم أكمل عوض «لا يوجد عندنا عباس بك. عباس الوحيد الموجود عندنا هو زميلنا عباس النحال الذى يرفع الروث من تحت أرجل البقر»

وفى الإسطبل أطل عليهم عباس من أسفل بطن البقرة وسألهم وهو غارق فى بلاهة مفاجأة: «من؟.. من أنتم؟»

ـ «أأنت عباس النحال؟»

ـ «أجل.. أنا هو.. ماذا تريدون؟»

سارع زميل له فلكزه فى كتفه زاجرًا: «اجر على الحوض.. واغسل نفسك.. بسرعة»

لم يستجب لطلب زميله.. لكنه استدار إلى أحد البكوات قائلًا:

ـ «نعم يا باشا.. أنا ليس لى شأن بما فعله أولادى مع جوهـر البقال..»

فسأله أحدهم: من هو جوهر البقال؟

فرد عباس مسرعًا: «الرجل الذى وجدوا الحشيش فى جيبه فى نقطة الشرطة»

فقال له الرجل الكبير: «جوهـر وعرفناه.. فمن هـم أولادك؟»

ـ «أولادى بدير.. والسيد.. وأمير.. و..»

ـ «عندك ولد اسمه أمير؟..»

ـ «نعم يا بك وهـو مازال تلميذًا و..»

ـ «تلميذ.. وأين يدرس؟»

ـ «فى الكلية.. فى مصر..»

ـ «أى كلية؟..»

راح يتذكر اسم الكلية فلاحقه أحد زملائه موجهًا الحديث إلى البك:

ـ «التجارة.. التجارة يا باشا.. كلية التجارة..»

استثمر ضابط أمن الدولة حكاية جوهر البقال لإيهام المحيطين به أن زيارتهم لها علاقة بهذا الموضوع فقال لعباس:

ـ «أنت واثق أنك لا علاقة لك بموضوع جوهـر والحشيش!..»

ـ «أى والله العظيم يا باشا لكن الموضوع ده فات عليه شهور..»

لم يجعله يكمل قسمه وأشار له على إحدى سيارتين جاءوا بهما: «اركب..»

ثم لاحقه: «اغسل نفسك أولًا»

* * *

وفى مبنى مباحث أمن الدولة، كانوا كلما نظـروا إلى عبـاس النحـال يأخذهـم بعـض الإشفاق ويتولاهم كثير من الضحك كبيرهـم فقط هـو الذى أبدى إعجابه بالولـد أمـير ابن هـذا الرجل المسكين وأثنى على خياله الجامح الذى أوهـم رجلهم نصار عبـد العلـيم بانحداره من ظهر أب أرستقراطى يربى الخيول ويزرع أشجار الورد ويدخن السيجار

ـ «هـاتوا أمير هذا، وتحدثوا معـه.. ثـم جنـدوه.. فواحـد بهـذه القـدرة والبجاحـة لا تفرطوا فيه..»

* * *

وما إن دخلوا به على أبيه وشاهـده أمامه حتى ارتبكت فرائصه، وتركوهـما يتحـدثان على انفراد ظاهـر، وباتصال خفى تنقله سماعاتهم راحوا ينصتون:

ـ «أبى.. ما الذى أتى بك إلى هـنا.. ماذا فعلت؟»

ـ «أنا الذى فعلت؟.. اسألوا أنفسكم ماذا فعلتم؟»

ـ «تقصد من؟»

ـ «أنت وإخوتك.. وما فعلتموه مع جوهـر البقال..»

ـ «قضية جوهـر لم يعد لنا علاقة بها.. من الذى أفهمك ذلك..؟»

ـ «البكوات الذين أتوا بى من داخل إسطبل البقر..»

ثم دقق عباس النظر فى بدلة ولده الفخمة، ثم أمسك بقماشها يتفحصه:

ـ «ما شاء الله.. كشمير أصلى.. من اشتراهـا لك؟ السيد.. هـل أطلعك على سره.؟»

ـ «سره؟.. أى سر؟..»

ـ «سر أمواله الكثيرة، زار البلد وشاهـده الناس فى ملابس الباشوات، وأعطى لخميسة بنت عفيفى هـدايا كثيرة ولم يكلف خاطره بالمرور علينا..»

ـ «ما كل هـذه الألغاز التى تقولها.. أنا لم أفهم منك أى شىء؟..»

ـ «ولن تفهم إلا إذا استعملت مخك.. السيد وبدير يلعبان فى الممنوع.. فى المخـدرات.. وأنا تعمدت أن ألف وأدور على البهوات الذين خطفونى من الإسطبل.. ودخلت بهم على قضية جوهـر لأصرف نظرهم عن إخوتك قل لى: أين أنا الآن؟..»

ـ «أنت فى مصر..»

ـ «فعلًا.. السيارة قطعت بنا مسافات، ونمت منهم فى الطريق حتى شبعت..»

ـ «فى أى شىء تحدثوا معك؟»

ـ «كلام يا ولدى لا أعرف له أول من آخر.. جمال عبد الناصر.. والثورة.. والشيوعيين.. والإخوان المسلمين.. والإقطاعيين.. والشيوعيين الإقطاعيين.. مالى أنا وكل هؤلاء.. قلت لهم لا أعرف أحدًا منهم..»

ـ «ألم يتحدثوا معك عن بدير والسيد؟..»

ـ «بلى يا ولدى.. وهذا ما تعجبت له.. أخشى أن يكون الأمر يتعلق بك»

وفى الحجرة المجاورة أطفأ كبيرهم الميكروفون ورفع يده إلى أعلى قائلًا لرجاله:

ـ «أحضروه الآن..»

فتحوا عليهما الحجرة قبل أن يعلق أمير على تساؤل والده، وبعد ساعة واحدة من حصار الأسئلة المرهقة تركوه مع نفسه وهو يتصبب عرقًا، فالتقط أنفاسه وراح يسترجع كل الاتهامات التى واجهوه بها:

ـ «التشنيع.. والتستر.. والتضليل.. وخلق أعداء للثورة، والإضرار بأمن البلاد.. والتنكر لأهداف الثورة.. ما كل هذا؟.. هل أنا قمت بكل هذه الجرائم؟ أنا لم أتحدث عن الثورة إلا مع نصار عبد العليم.. قلت له رأيًا وهميًا من صنع خيالى مدعيًا أنه رأى أبى، أبى الذى صنعته من خيالى أيضًا.. أنا كاذب.. كاذب فقط.. هل هم يقبضون على الكذابين؟ أم لأننى فى اعتقادهم أتستر على بدير والسيد اللذين يتاجران فى الحشيش..»

دخلوا عليه وأفاق على واحد منهم يتحدث مع كبيرهم:

ـ «لم نفلح فى حمله على الاعتراف، يبدو أنه فى حاجة إلى تشريفنا هنا لعدة أسابيع أو بضعة شهور حتى يعترف.. هذا إذا أمرت سيادتك بذلك»

فتوجه إليه كبيرهم بالحديث:

ـ «يا أمير.. إذا كنت تتعلم بالمجان على يد الثورة.. فكيف تعاديها وتشنّع عليها؟ ثم إنك تتستر على إخوتك تجار الحشيش.. يعنى أنت وقعت فى مصائب كافية لتدمير مستقبلك..»

انفجر أمير فى البكاء ومن خلال بكائه المتقطع راح يتحدث حديثًا مضطربًا يؤكد براءته إلى أن تحدث أحد الضباط مع كبيرهم:

ـ «هـو يقول يافندم أنه كان يكذب، وما عدا هذا فهو خامة طيبة.. وإذا وجّهناه فلن نخشى جانبه.. ثم إنه غير مسئول عن إخوته تجار الحشيش»

تهيأ كبيرهم للانصراف، وقبل أن يدير ظهره لهم توقف فخاطب هذا الضابط:

ـ «ما دمت دافعت عنه ياوجدى.. سأتركه لك.. أنت المسئول عنه.. تصرف معه بمعرفتك..»

ثم وجه حديثه إلى أمير:

ـ «ستذهب مع الرائد وجدى إلى مكتبه.. الرجل تصدى لإنقاذك.. افهم منه ماذا يريد.. واسمع كلامه».

* * *

وما هى إلا ساعة واحدة حتى كان قد فهم من الرائد وجدى ماذا يريدون..

وضحك داخل نفسه من كل هؤلاء الضباط الذين أرهقوه وأرهقوا أنفسهم بكل هذه المقدمات التى لا لزوم لها.. فالمطلوب منه أن يكون هو نصار عبد العليم السنوات القادمة..الرائد وجدى لم يفصح له عن هذا الإرث الذى فى انتظاره، لكنه عرف أن الدور الذى سيؤديه سيصل به إلى هذه الغاية.

هم يريدونه أن يصبح عينًا رسمية لهم.. عينًا من لحم ودم.. عينًا تترجم لهم ما تراه فى تقرير مكتوب، عين تجوب لهم قاعات المحاضرات والندوات وحدائق الجامعة والكافيتريات بحثًا وتنقيبًا عن قلب ضال أو كلب مارق.. وأن يصبح لهم يدًا.. فيده التى لم تتمكن من الأخذ والعطاء آن لها أن تتمكن من الانتقام.. «أصبحت الآن فى حضن النظام».. هكذا همس لنفسه بفرحٍ طاغٍ

وتهلل وجه الرائد وجدى عندما قال له أمير وهو يتناول رشفة من كوب الليمون المثلج الذى أمامه:

ـ «اعتبرونى من الآن يافندم خادمًا عندكم، ومنفذًا يا فندم كل توجيهاتكم.. ولن يخيب ظنك بى أبدًا.. يا باشا»